زكريا تامر

الأعمال القصصية

ربيع في الرماد

THE COLLECTED SHORT STORIES

SPRING IN THE ASHES

BY

ZAKARIA TAMER

First Published in 1963
Second Edition Published in 1978
Third Edition Published in 1994
Copyright © Riad El-Rayyes Books Ltd
56 Knightsbridge
London SW1X 7NJ
UNITED KINGDOM

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1-85513-410-1

All rights reserved. No part of this publication
may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by
any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise,
without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: رشا السلطي
لوحة الغلاف: محمود حمّاد

الطبعة الأولى ١٩٦٣
الطبعة الثانية ١٩٧٨
الطبعة الثالثة ١٩٩٤
© رياض الريّس للكتب والنشر ش.م.م

قصص الكتاب

ثلج آخر الليل ٩
الباب القديم ٢٣
الجريمة ٢٩
شمس صغيرة ٤١
الوجه الأول ٥٣
سيرحل الدخان ٦٣
النهر ٦٩
ربيع في الرماد ٧٩
القرصان ٨٩
جنكيز خان ١٠٣
العصافير ١١١

ثلج
آخر الليل

ألصق يوسف جبهته بزجاج النافذة المطلة على الطريق. وكان الليل خارج الغرفة وردة سوداء باردة، وكان ثمة ثلج يتساقط بطيئاً عبر فضاء من نور شاحب. وكانت أم يوسف تضع آنئذٍ ابريق الشاي على المدفأة، بينما جلس والده صامتاً، ترين الكآبة على وجهه المتغضن، ويلتمع في عينيه سخط خفي، ويداه مرتميتان بوجوم على ركبتيه كصديقين متعبين عجوزين.

وأحنق يوسف ان يعود القط ويتسمح بساقيه، فركله بقدمه متأففاً.

وانكمش القط متألماً، وقبع قرب المدفأة، وأغمض عينيه بانكسار، وأخذ يحلم بعثوره على حديقة أسوارها عالية جداً، وأرضها مغطاة بطبقة من عصافير لا أجنحة لها، سيختار عصفوراً سميناً، وسيحملق إليه بشراهة، فيذعر العصفور ويتراجع باضطراب. سيقول العصفور بصوت رفيع متقطع: «أنا عصفور مسكين».

-: «أنا جائع».

أعماقه غضب قديم، فقال موجهاً كلامه لأبيه: «ستؤذينا، يجب ان نتخلص منها».

فتألق سرور خفي في عيني الأب وهو يجيب: «إنها تؤذي فقط من يؤذيها.. وقد عاشت في البيت قبل ولادتي ولم تؤذ أحداً».

وكان يوسف موقناً بأن الأفعى تعلم بأنه يكرهها وهي تترقب مقدم لحظة ما ثم ستزحف حاملة إليه الهلاك، وكثيراً ما طالب أباه بالسكن في منزل جديد من اسمنت وحديد وحجر.

وتجسدت في مخيلة يوسف أبنية بيض كأنها قصائد من الشعر العذب المفعم بشمس لا تأفل.

وكان الأب يرفض قائلاً بعناد: «هنا ولدت وهنا سأموت».

وراقب يوسف وجه أبيه بغيظ. وسعل الأب ثم تابع قائلاً بسخرية: «اعثر عليها إذا استطعت واقتلها».

وقال يوسف لنفسه: «سأعثر عليها ولن تفلت مني».

وكان ثمة مقعد فارغ قريب من النافذة، تأمله يوسف ملياً وبحنق، وكانت أخته اعتادت الجلوس عليه في السهرات، تضحك وتتحدث وتداعب قطها.. ولكن أين هي الآن؟

وتاق يوسف إلى تدخين سيجارة. وكانت السجائر في جيبه، ولكنه لم يكن ليجرؤ على التدخين أمام أبيه، فاتجه نحو باب الغرفة. وبادره والده متسائلاً: «إلى أين؟».

-: «سأغني لك».

-: «أنا جائع».

وسينقض القط على العصفور في وثبة ضارية، ويغرس أسنانه الصغيرة الحادة في عنقه ممزقاً حنجرته الغضة، وعندئذٍ سينزف الدم قرمزياً ساخناً.

وضغط يوسف جبينه على زجاج النافذة الرطب بينما كان يتكون في مخيلته وجه أخته الهاربة: فتاة وديعة، دائبة الابتسام. وقال لنفسه: «سأقتلها حين أعثر عليها. سأفصل رأسها عن جسدها».

وسمع أباه يقول له: «ألم تتعب من الوقوف؟».

فلم يتحرك يوسف، وظل صامتاً. وأسرعت الأم إلى التدخل قائلة: «نسيت أن أخبركما بما رأيت البارحة.. رأيتها».

ففوجىء يوسف، واستدار بحركة سريعة. وحين التقت نظرته بوجهها، أدرك حالاً انها قد شاهدت مرة أخرى الأفعى التي تحيا مختبئة في بيتهم العتيق ذي الجدران الترابية. وتخيّل يوسف الأفعى: إنها سوداء، ناعمة، ملساء، تزحف بسكينة عبر باحة البيت تحت ضوء القمر الذي كان بازغاً بالأمس.

وقالت الأم: «ما أجملها! كانت كالملكة».

وشعر يوسف أن الأفعى ملكة حقيقية عجيبة، مات كل عبيدها وبقيت تحيا وحيدة في أرض خربة. واستيقظ في

فقال يوسف: «أنا متعب وأريد أن أنام».

قال الأب: «يا لك من مسكين! عملك كثير جداً.. هل تكسر حجارة في النهار؟ لماذا تتعب ما دمت لا تعمل شيئاً؟ هل أتعبك التثاؤب؟ قل لي.. ألم تجد عملاً؟».

واعترضت الأم قائلة: «انه مريض.. انظر إليه.. لكم هو هزيل وأصفر».

وأحس يوسف أن اللحظة التي يخشاها موشكة على المجيء.

وصرخ الأب بنزق: «أنا لا ألوم أحداً سواك. أنت التي أفسدت الأولاد. الابن الشاب يأكل وينام.. والبنت تهرب.. والزوجة تثرثر مع الجارات.. والأب يشتغل كالحمار».

فقالت الأم بصوت متوسل: «لا تصح هكذا، سيسمع الجيران صوتك».

-: «سأصيح كما يحلو لي».

وحنى الأب رأسه ثم أضاف بلهجة أسيانة: «آه يا ربي.. ما الذي فعلته حتى تفضحني في آخر عمري؟».

قالت الأم: «ألم أقل لك أن تبلغ الشرطة عن اختفائها؟».

-: «كان يجب ألا تتركيها وحدها، ولولا خروجك من البيت وذهابك إلى الجيران لما استطاعت الهرب. لماذا لم تأخذيها معك؟».

-: «كانت المسكينة متعبة بعد ان نظفت البيت كله».

-: «مسكينة؟ مسكينة تستحق الذبح. ماذا سنقول لأقاربنا إذا زارونا ولم يجدوها في البيت؟ هل سنقول لهم: كانت أمها عند الجيران فأخذت البنت أكثر ثيابها وهربت ولا نعرف مكانها».

والتفت الأب إلى يوسف، وردد بصرامة: «أريد منك أن تبحث عنها، وتجدها بأي طريقة. اذبحها كالكلبة».

وتذكّر يوسف أيام طفولته، وكانت الخراف تذبح في صباح أيام الأعياد على عتبات حوانيت الجزارين.. الخروف يطلق صيحات مذعورة تحت ثقل الجزار ولكنه لا يستطيع التملص.. وسكين الجزار كبيرة النصل وحادة.. تخترق عنق الخروف ويتدفق الدم من جرح عميق أحمر.

وانفجرت الأم تبكي، وهتفت: «إنها ابنتي أنا.. وأنتما الاثنان لم تهتما بها أو بي».

وفتح يوسف الباب، وتسلل إلى الخارج. وحين أغلق خلفه باب غرفته شعر بطمأنينة غريبة، وسارع يشعل سيجارة، ويعبّ دخانها على مهل، ويذرع الغرفة بخطى قصيرة مهتاجة وهو ينصت لوقع حذائه على البلاط، ثم توقف بعد قليل قرب طاولة خشبية، ورمقها بحسرة.. فهنا كان المذياع الصغير الذي كان يملكه، وقد أجبره أبوه على بيعه.

ولقد كان المذياع صديقاً وفياً ليوسف، وها هو ذا بعد فقده شاب بلا موسيقى. وأحس بالبرد يزداد حوله، فخلع ثيابه، وأطفأ المصباح الكهربائي ثم دس جسده تحت اللحاف مسلماً رأسه للوسادة.

وكان موقناً بأن الأفعى لا بد مختبئة في مكان ما في البيت أو تزحف عبر غرفه بهدوء.

وأطبق يوسف جفنيه، وكان حنينه إلى الموسيقى ينمو ويتفجر في داخله كغيمة تحولت مطراً هاطلاً فوق تراب خشن. وأصغى إلى موسيقى سحرية قادمة من أعماقه حيث يقبع شيء غامض مرتجف، يخلق الموسيقى وهو ينتحب ولا يمسح دموعه.

وشعر يوسف بأنه قد يبكي بعد قليل بشدة، وأنه هو المطر والتراب الجاف في آن واحد. وأحس يوسف بأن ثمة عالماً مجهولاً قريباً منه كل القرب ولا يفصله عنه سوى جسر من الزجاج. وقال لنفسه: «مريض أنا مريض».

واندفع يوسف، واجتاز مسرعاً الجسر الزجاجي، فاحتضنه برأفة عالم شاسع مبهم، سيده الظلام الكثيف.

وتجسدت في مخيلة يوسف بقايا مدن.. أبنية متهدمة، فهتف بلا صوت: عمري يتبدد.. أريد عمراً آخر بلا أب.

وتفجر أساه المكبوت: الأشجار نجوم خضر. قلبي يطرق باباً مغلقاً. دموعي أطفال حزن هرم. لمن يشحب وجه الشمس؟ الليل وسادة تحب المتعبين. دمي ينزف، يهرقه غياب امرأة نهدها نائم على بساط أزرق، يحلم بمدن الرجال.

يوسف يرتجف تحت اللحاف وقد تأكد أنه مريض.. إنه يصطاد نجوماً ويقول: ليت الجرح لا يصرخ، ويقول: أشرقي يا شمس الغضب.

ويأتي الموت متنكراً في ثياب بحار. يوسف يقول له: ليحملني مركبك إلى الشاطىء.

والشاطىء الآخر صوت أخضر ينادي يوسف بكثير من الحنان، ولا يجيب الموت، ويبحر مركبه، ويلوّح يوسف بيده لمسافرين شاحبي الوجوه.

وأقبل الناس الذين يحبون الموسيقى، وكانوا يحملون طبولهم وأبواقهم. وتجولوا في حدائق مهجورة.

الليل شعر امرأة. لا لا. الليل أفعى تزحف متغلغلة في صميم العالم.

ويئن واحد من الرجال الذين يحبون الموسيقى، ثم يرفع بوقه إلى فمه. وتألق معدنه النحاسي لحظة ثم انبعث منه صراخ طويل متحشرج تخلى عن الخجل وناح كأنه صوت البشر المسحوقين الذين يعيشون بذل فوق الأرض الصلبة.

يوسف الآن سيف وعباءة تلاعبها الريح وجواد يعدو فوق رمال الصحارى. يسمع صوت امرأة تستغيث. أختي تناديني.

وتمنى يوسف لو تأتي الأفعى في تلك اللحظة. لا يريد أن تميته بسمها إنما يبغي أن تطوق عنقه بجسدها البارد، وتظل تضغط عليه حتى يختنق ويكف عن الحركة.. وعندئذ سينأى عن أبيه وأمه وأخته والسكين العطشى للدم.

ولعق يوسف شفتيه اليابستين بلسانه، ولم يكن يريد الاستسلام للسبات لأنه كان يعلم أنه سيشاهد في أثناء نومه سبع بقرات عجاف ذات خوار حزين، ترعى في حقل

بلا عشب، وستكون السماء سقفاً صلداً واطئاً من الجراد والذباب.

لن يستسلم يوسف لليأس. سيظل يبحث عن أخته طوال أيام الشتاء متسكعاً تحت المطر والثلج غير آبه للريح والصقيع، ولكنه لن يتمكن من العثور عليها، وسيتأمل بأسى الأشجار الجرداء، وستكون كالمتسولات، ولن تترك أصابعه مقبض المدية القابعة في جيبه.

وتمثل يوسف أخته يوم طلبت من أبيه السماح لها بالذهاب إلى السينما مع بنات خالتها، فصفعها الأب بقسوة، ولن ينسى يوسف نظرة عينيها الذليلتين ونشيجها المكتوم.

وعندما سيأتي الربيع ويعود للسماء صفاؤها، وتسطع الشمس دافئة، وتكتسي الأشجار بأوراق خضر، ستقوده قدماه إلى سوق الخضروات، وهناك سيمشي على مهل منصتاً لأصوات الباعة. وبغتة سيبصر فتاة تحمل في يدها حقيبة من قماش وستكون منهمكة في مساومة أحد الباعة. سيتراجع يوسف مضطرباً: إنها أختي.

وستتلمس أصابعه مقبض المدية، وسيراقب أخته: إنها امرأة صغيرة متعبة، بائسة وسعيدة في وقت واحد. وسيتذكر يوسف يوم كان مريضاً ومستلقياً على ظهره، يئن متوجعاً، وحين فتح عينيه شاهد أخته تبكي بصمت.

وستسير الأخت وهي تحمل حقيبتها المملوءة بالخضروات، وسيقترب منها أحد الحمالين عارضاً عليها حمل الحقيبة فترفض الأخت، وسيقول يوسف لنفسه:

سيدة المنزل الصغيرة تريد توفير النقود. وسيتبعها يوسف، وعندما تصبح في شارع خاوٍ سيدنو منها حتى تلامس كتفه كتفها فتلتفت مستطلعة فتباغت برؤية أخيها، وتتسمر متجمدة في مكانها، وتفلت أصابعها حقيبة الخضروات، وستنظر إليه بعينين فيهما ذل وأسى وحنان، ثم ستمد إليه يدها، وسيشعر يوسف بأنها ليست أخته وإنما هي امرأة صديقه سافرت طويلاً، وها هي ذي الآن تعود مادة إليه يدها لتصافحه. وسيمد يوسف يده بحركة ذاهلة ثم سيظلان واقفين دون كلمة. وسيمر شاب ويرمقهما بنظرة خبيثة كأنها تهتف: ها هما شابان عاشقان. وسينحني يوسف، ويحمل حقيبة الخضروات ثم سيسألها بصوت خشن: «كيف تعيشين؟».

-: «تزوجت من شاب فقير».

وستهرب كل الكلمات من يوسف، ولكنه سيدرك ما حدث: شاب فقير، طيب القلب، وفتاة تريد أن تحيا، وأب لن يزوج ابنته من فقير.

وسيسيران معاً ثم ستقف الأخت عند مدخل بناية وتقول: «وصلنا».

وسيعرف يوسف أنها تسكن في القبو، وسيضع حقيبة الخضروات على الأرض ريثما تفتح أخته الباب ثم سيحمل مرة أخرى حقيبة الخضروات، ويدلف إلى الداخل، وستستقبله تواً رائحة مخلوقين ينامان في سرير واحد ويضحكان ويتخاصمان ولكنهما لا ينامان حزينين.

وسيرتمي يوسف على مقعد، وكم سيكون مريحاً.

وستتلمس أصابعه ثانية المدية: سينهض الآن وينتضي المدية ذات الشفرة الحادة، وسيقبض على شعر أخته ويطرحها أرضاً ويذبحها بينما هي تغمغم بصوت هلع خافت: «أخي أخي».

وسيتذكر يوسف أيام كان وأخته صغيرين. كان يكبر أخته بأعوام قليلة، وقد جاءت إليه ذات مرة باكية، وأخبرته أن ابن الجيران ضربها، وقد سارع وقتئذٍ إلى الحارة، وضرب ابن الجيران.

سيقول يوسف للمدية: «موتي. ظلي بعيدة عن الدم».

وستأتي الأخت، وتقف أمامه وقد خلعت معطفها. يا للثوب الرائع الذي ترتديه.. ثوب امرأة منزل! ستقول له: «كيف حال أمي؟».

وسيظل يوسف يرقبها بصمت، وستندفع فجأة إلى النحيب وهي تتمتم: «كل اللوم على أبي. لن أسامحه.. عذّبنا كثيراً».

لقد عذّبنا. لقد عذّبنا.

وسيبعد يوسف يده عن المدية، ويخرجها من جيبه، ويضعها تحت ذقن أخته، ويرفع وجهها إليه، وسيكون مبللاً بالدموع، فيجففه بمنديله وهو يقول بحنو ورقّة: «لا تبكي».

وربما وثبت على حين غرة، وقبلت وجنته، وعندئذٍ ستمتلىء شرايينه بأغنية عارمة للحبور، وقد يقول لها: «هيا هيا ابتسمي».

وعندما يعود إلى البيت سيجد الأفعى مرتمية في الباحة ميتة باردة، وسيتطلع بانتصار إلى أبيه المكتئب.

واجتاح يوسف حنو عجيب جارف وهو متمدد على الفراش، وودَّ لو ينهض ويضيء المصباح الكهربائي، ويحدق إلى المرآة.

وأقبل الرجال الذين يحبون الموسيقى، وكانوا لا يحملون طبولاً وأبواقاً غير أن أصواتهم الشادية كانت كسهل أخضر لا نهائي.

واستسلم يوسف للسبات العميق بينما كانت يتصاعد من باحة البيت مواء قط حزين كأنه نداء ضارع يناشد مخلوقاً ما بالعودة.

وكان الثلج خارج الغرفة لا يزال يتساقط مانحاً الأبنية والناس والشوراع قناعاً أبيض.

الباب القديم

غادر الحانة جندي ذو شعر أشقر مخلفاً وراءه ضجيج رجال سكارى، وجوههم سمر، وأعينهم وديعة غير أنها تبدلت لحظة لمحته، واتقدت فيها الكراهية والصرامة لأنه واحد من جنود غرباء غزوا مدينة لم يولدوا فيها.

وتلقفه صمت الشارع الذي كان آنئذٍ خاوياً، فعندما يشارف الليل على الانتصاف، تستسلم المدينة للسبات، فتطفأ أنوار النوافذ، وتقفر الطرقات، وتمسي ملكاً للمتسكعين والمقامرين والسكارى العائدين إلى منازلهم بخطى متعبة.

وسار الجندي الغريب بمحاذاة سور النهر مترنحاً قليلاً، وأنعشه بعض الشيء الهواء الخفيف الذي كان يهب محملاً برائحة الياسمين والليمون والآس. وكان خرير المياه المترقرقة بهدوء ينساب إلى سمعه كأنه شكوى حزينة خافتة.

وبلغ ساحة المدينة الرئيسية، وهناك وقف هنيهات حائراً

ثم سلك طريقاً فرعية، غرست في وجه أرضها الحجرية سكة الترام، وتناثرت على جانبيها دكاكين، أبوابها حديدية مقفلة، وأعمدة خشبية متباعدة تتدلى منها مصابيح كهربائية، بخيلة الضوء.

وتعمد الجندي السير بين قضيبي السكة الحديديين. إنه الآن ترام. وسرى إليه قليل من الفرح. إنه ترام يتهادى بطيء السير. وتذكر أيام كان صغير السن، يركب القطار ويقف قرب إحدى نوافذه يرقب الحقول الخضر والقرى المتعاقبة بسرعة تحت نظراته بينما الهواء يبعثر خصلات شعره الأصفر الناعم على جبينه.

إنه الآن ترام سريع، ثمل. وأخذ الجندي يركض برتابة بين قضيبي السكة مترنحاً وقد تزايد مرحه، وقلد الترام مطلقاً من فمه صوتاً حاد النبرة: «تم تم تم».

وتابع عدوه حتى تعب، وعندئذٍ توقف لاهثاً، مجيلاً أنظاره فيما حوله. وكان إلى يمينه درب مظلم، يلوح في آخره مصباح كهربائي وحيد.

وكانت التعليمات تحذر الجنود الغرباء من السير فرادى ليلاً في أزقة المدينة.

وأحس الجندي أن هناك في الدرب خطراً غامضاً يربض منتظراً مقدمه. وحفزه شوق مبهم إلى أن يجابه الخطر ويتحداه، فسار في الدرب الخاوي مغنياً بصوت أجش متقطع حتى وصل إلى نهاية الدرب حيث المصباح الكهربائي. وكان هناك باب كبير من أبواب المدينة، باب

قديم كان يغلق فيما مضى من الليالي ليحمي المدينة من أعدائها.

واستند الجندي إلى الباب، وخيّل إليه أن يسمع صليل سيوف وصهيل جياد وأصواتاً تتعالى مرددة: «الله أكبر».

وانتابه بغتة خوف غريب، وسمع وقع أقدام، فارتعش متوجساً، واشتد التصاق ظهره بالباب. وبدا رجل وامرأة يسيران معاً ويتحدثان بإلفة. وكانت المرأة ترتدي ملاءة سوداء. واستطاع الجندي أن يلمح وجهها قبل ان تسدل عليه نقابها القاتم بحركة سريعة من يدها، وكان وجهاً أبيض فتياً تألق عبر العتمة بكثير من العذوبة والفتنة.

وتضاعفت وحشة الجندي الغريب، وتفاقم سخطه على شيء ما، ووجد نفسه يتحرك دون وعي، ويعترض طريق الرجل والمرأة، تسيطر عليه رغبة جارفة في رؤية وجه المرأة عن قرب وبلا نقاب.

وأطلقت المرأة صيحة ذعر خافتة، ووقفت خلف الرجل محتمية به، متمسكة بخاصرتيه.

وتقدم الجندي ماداً يديه إلى الأمام كأعمى، وتمايل مترنحاً محاولاً الإمساك بالمرأة، ولكن الرجل صدّه بيديه، ودفعه في صدره دفعة قوية، أجبرته على التقهقر إلى الخلف بينما ولولت المرأة بصوت حاد، فتسمر الجندي في مكانه حائراً، مرتبكاً، شديد الحنق، وتناهى إلى مسمعه وقع أقدام سريعة، وما لبث أن أقبل ثلاثة رجال، يرتدون الشراويل السود ويضعون على رؤوسهم الطرابيش الحمر، وتحلقوا فوراً